المظاهر العمرانية بين القرى الواحية بتونس والقرى الريفية بالجزائر دراسة مقارنة

د/ رابح فيسة محمد
قسم علم الآثار جامعة تلمسان

الملخص:

تهدف دراستنا هذه إلى إبراز المظاهر العمرانية المشتركة بين الوسط القروي الواحي في بلاد تونس وعلى وجه التحديد في قرى قفصة ،ونظيره في بلاد الجزائر في منطقة ريفية اشتهرت بها مدينة تلمسان ألا وهي قرى بني سنوس ، والدافع الأساسي من وراء هذا المقال هو إبراز الخصائص والمظاهر العمرانية المشتركة بين المنطقتين بالرغم من اختلاف المناخ والبيئة بصفة عامة ،لذا قمنا في البداية بإبراز الخصائص الطبيعية من موقع وتضاريس والتي لا تختلف كثيرا من حيث الصعوبة والضيق،ثم عرجنا بعد ذلك إلى ذكر كبرى المظاهر العمرانية المتجلية في هذان الوسطان وإعطاء الأمثلة على ذلك في المظهر الديني أولا ثم الاجتماعي والاقتصادي .

مقدمة:

تشكل الحياة الجماعية لدى سكان البدو والريف أهمية خاصة وطابعا متميزا تحدثت عنه الكثير من الدراسات التي تطرقت إلى مدى ارتباط الأفراد بالجماعة ونشاطهم داخلها، وهو ما عبر عنه ابن خلدون حينما يتحدث عن علاقة الانسان مع بعضه البعض، وأن احتياجاته لا تكتمل إلا بالتعاون مع الآخر ،حتى وإن كان أصل التجمع السكني واحد فإننا نجد من الأفراد كما يذكر ابن خلدون من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك ،فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفئ إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك[1] ،ويتضح من خلال كلام ابن خلدون أن حدوث الظاهرة العمرانية دوما مرتبط بالحياة الاجتماعية والاقتصادية التي تطلعنا عن نوع التجمع السكاني وأهم نشاطاته وممارساته ،فالمدينة مركز الصناعات والحرف، والقرية الواحية أو الريفية يغلب عليها طابع

الحياة التقليدية التي تعتمد في أساسها على الفلاحة وتربية المواشي والأغنام ،وإن وجدت فيها الحرف والصناعات أو شيء من النشاطات الصناعية فلن تكون سوى بعض المحاولات التي تكون محلية تنقصها الدقة والتنميق الواضحة أكثر من تلك الموجودة بالمدينة .

يظهر من خلال الدراسات الميدانية و التطبيقية لهذه النظريات التي كان ابن خلدون أول من أشار إليها أنها فعلا تبدوا واقعا معاشا من خلال تتبع الحياة اليومية لتلك التجمعات السكنية التي تكون على شكل قرى واحية أو تلك التي تكون في الريف على شكل قرى فلاحية ،والتي في أساسها لم تقم إلا لغرض التكيف مع البيئة المحيطة ومحاولة استغلال ثرواتها بالتعاون فيما بين الأفراد ومحاولة صياغة هذا التفاعل وترجمته على شكل نمط معيشي يمكن من خلاله ضمان الأمن والاستقرار في شتى مناحي الحياة هذا من جهة ،كما أن هذه الجماعات لم يستقم لها هذا التجمع والاستقرار حتى توفرت لها العديد من الشروط التي لا بد من توفرها لحدوث العمران البشري كوفرة المياه والمواد الأولية التي تستعمل في مختلف أوجه الحياة سواء في القرى الواحية أو الريفية ،ولعل موضوعنا هذا سيبرز أهمية هذه التجمعات البشرية المنتشرة في القرى الواحية بتونس والتي اخترنا منها تلك التي تقع في أطراف مدينة قفصة* (قرية القصر،قرية لالة،قرية سيدي منصور،قرى القطار)،كما اخترنا نموذجا آخرا لإبراز نوع المظاهر العمرانية فيه ومقارنتها بتلك الموجودة في القرى الواحية السابقة الذكر، وهو نموذج قرى الريف ببني سنوس** (قرية تافسرة ،قرية العزايل أو الثلاثة،قرية الخميس،قرية بني عشير) بمدينة تلمسان*** بالجزائر ،وتجدر الاشارة هنا إلى أن دراسة المظاهر العمرانية من خلال هذه التجمعات السكنية المتمايزة ومقارنتها ببعضها البعض هو من الدراسات التي تضفي طابعا متميزا يتبين من خلاله مدى خصوصية هذه المجتمعات وعراقتها.

الموقع والتضاريس :

يبدوا لنا من خلال الاطلاع على الموقع الطبيعي والتضاريس بأن القرى الواحية بقفصة تقع في منطقة شبه صحراوية تمتاز بالضيق وصعوبة التضاريس إذ أن هذه القرى مع مدينة قفصة تقع في منخفض مما جعلها همزة وصل بين السلسلة الجبلية الغربية التي تمتد حتى الحدود مع الجزائر والسلسلة الجبلية الشرقية التي تتواصل حتى أرياف صفاقس وأراضي عروش المهاذبة ونفات[2]،في حين نجد بأن قرى بني سنوس بتلمسان تقع في منطقة غابية تحدها الجبال المرتفعة والتي نجدها تحتضن القرى وتحيط بها تقريبا من جميع الجهات ،وهو ما أتاح لها هذا الموقع الاستراتيجي الهام ،وبإجراء مقارنة بسيطة من خلال هذا العرض لموقع القرى بصفة عامة يتبين

لنا أن هذا الموقع الوعر والتضاريس الصعبة كانت عاملا من العوامل التي أدت إلى الاستقرار في هذه القرى كيف لا وقد شكلت هذه البيئة بميزاتها مادة خام لسكان هذه المناطق ،التي سيتبين لنا فيما بعد أنها وفرت شرطا أساسيا ومصدرا طبيعيا لحدوث مثل هذه التجمعات.

وقبل استقراء المظاهر العمرانية لهذه التجمعات السكنية لابد من الاشارة في البداية إلى أن عمران هذه القرى[3] جاء بطريقة غير منتظمة أي عشوائي التخطيط إذا ما قورن بالتخطيط العمراني الموجود بالمدينة ،وهذا ليس بالشيء الحديث في هذا المجال، فمعظم التجمعات القروية تكون خططها بالصفة العشوائية،بالرغم من أن هذا النظام في حد ذاته فرضته طبيعة الموقع والتضاريس في كثير من القرى والتجمعات السكنية ،ومهما يكن فإن هذا التخطيط العشوائي لم يمنع سكان القرى الواحية والريفية من إحداث نسق عمراني خاص بهم تتجلى من خلاله العديد من المظاهر العمرانية التي ساهمت في دعم مفهوم البقاء .

-1 المظهر الديني:

يعتبر المظهر الديني من بين أهم المظاهر العمرانية في القرى الواحية و الريفية ممثلا في المساجد والأضرحة ، يؤدي الفلاح صلاته في المسجد ويتعلم أمور دينه ودنياه ،ويفصل فيه في قضايا الفلاحين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويتعلم فيها أبناء القرية القرآن[4]،فقط يكمن الفرق بني القرى الواحية والقرى الريفية في كون الكتاتيب معماريا ألحقت بالمساجد والأضرحة في القرى الواحية[5] ،في حين أننا نجدها في القرى الريفية ألحقت بالمساجد فقط بل إننا نجدها تقع تحت أرضيات المساجد على شكل أقبية أو دهاليز ،وهذا إن دل فإنما يدل على مدى حرص هؤلاء السكان البسطاء على تعليم وتثقيف أبنائهم دينيا ،لذلك اعتبر سكان القرى أكثر تدينا واعتمادا على الله في حياتهم اليومية ونشاطهم الزراعي ،فالزراعة تجعلهم أكثر قربا من الشعور بقوة الله سبحانه وتعالى ،فتلك البذور تتحول إلى نبات وهذه الكائنات من الحشرات والنباتات التي تعيش حولهم يعرفون دورة حياتها،والجو والشمس والقمر والكواكب كل هذه الأشياء المحيطة بهم تذكّرهم بقدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والإبداع ،ويشعر الفلاح دوما بأنه في حاجة إلى الله كي يساعده في نشاطه الفلاحي الذي يتأثر بالعوامل الطبيعية كالمطر والصعيق والرياح والآفات،وهذه خارجة عن إرادة المزارع فيضاعف مجهوده ويقوم بواجبه تجاه أرضه وفلاحته ولكنه لا يضمن المحصول وما تعود به عليه السنة الفلاحية في موسم الجني والحصاد ،فكل هذه العوامل جعلت سكان الريف المزارعون منهم خاصة أكثر تدينا[6]،وكثيرا ما تلتف مساكن القرويين حول ضريح جد لهم أو ولي يكون رمزا من رموز قبيلتهم يكون قد

عرف بصلاحه وكراماته ويظهر ذلك في قرية القصر الواحية حينما اختارت مجموعة المقادمية الاستقرار شمال القرية بحومة القبايل بحكم مجاورتها لضريح وليهم،وقد حذوهم في ذلك سكان قرى لالة وسيدي منصور وكذا قرى القطار[7]،كما ينتسب أيضا بعض سكان قرية الثلاثا وبني عشير بريف تلمسان إلى أضرحتها كضريح سيدي علي مغنين وضريح سيدي علي بن مغنين،ولا تقل أهمية هذه الأضرحة في كل من قريتي تافسرة والخميس،والتي لا يزال الكثير من سكان هذه القرى يعتقدون في بركتها وأنها تحميهم من كل سوء ،وقد قامت الكثير من المقابر في الريف والواحات حول مبنى يطلق عليه السكان كلمة (الوالي) أو (القبة) يكون إما على حافة الطريق أو أعلى التلال المحيطة بالقرية أو على بقايا المقابر القديمة ،وتشكل هذه المقابر بحق قرية الأموات بجانب القرية يزورها أهل القرية في المناسبات الدينية فيقرؤون القرآن ويضعون بعض الغصون والأزهار الدائمة الورق[8]، فقد شكل هؤلاء الأولياء الصالحون وأضرحتهم بالقرى الواحية والقرى الريفية على حد سواء أحد العناصر الهامة في معتقدات السكان وحياتهم الدينية،حيث ساهم وجودهم في ضمان الترابط الاجتماعي بين الأفراد والجماعات المحلية وتدعيم الشعور بالانتماء إلى الجماعة داخل القرية الواحدة ،وامتداد ذلك إلى القرى الأخرى من خلال التشبث و الاعتقاد في صحة هذا التدين رغم التنوع والتباين في الممارسات والطقوس ومحاولة المزاوجة مع معتقدات تعود إلى الماضي السحيق ،وقد سمح ذلك للجماعات بالتوفيق بين تمسكها بخصوصياتها الضيقة والمصطبغة بالصبغة المحلية بدافع الشعور بالتفرد دون الإخلال بمفهوم الانتماء إلى أمة الإسلام الواسعة والتشبث بثوابتها الثقافية[9].

-2 المظهر الاجتماعي:

يبدوا المظهر الاجتماعي أكثر وضوحا في القرى الواحية والريفية من خلال العلاقات التي تجمع بين كافة أطياف المجتمع القروي ،والتي لم تقتصر على سكان القرية المنتمون لقبيلة واحدة فقط بل تعدتها إلى احتواء الأقليات اليهودية التي سكنت هذه القرى منذ فترات مبكرة،حتى أننا نجد بعض الحارات في قرى القطار ومنطقة قفصة سميت باسم هذه الأقلية أي حارة اليهود وهي تقع داخل الفضاء المبني الذي تحميه الأسوار ،ويعود سبب استقرار هذه الأقلية في القرى الواحية إلى احتضان المسلمين لها على مر التاريخ في المدن والقرى وتقدير وجودها بينهم ومما زاد هذه الأقلية استقرارا هو سلاستها في التعامل مع السكان المسلمين وإيجاد شبكة متميزة من التعاملات رسمت من خلالها علاقة طيبة معهم[10]،وقد تميزت هذه الأقلية بنفس العلاقات مع سكان القرى الريفية في بني سنوس إذ أن بعض الحرف والصناعات كانت حكرا على هذه

الطائفة والتي كانت تمارس داخل القرية[11]،دون أن تنازعها فيها باقي أطياف المجتمع القروي.

ويظهر التكامل الاجتماعي لدى سكان هذه القرى أيضا من خلال الأهمية التي يتميز بها كامل أفراد المجتمع القروي ،فلا توجد فروق بين المرأة والرجل ،ويظهر ذلك من خلال إشراكها في معظم النشاطات التي تشتهر بها الحياة سواء في القرى الواحية[12] أو في القرى الريفية[13]،ولا ينحصر نشاطها داخل المنزل فحسب بل يتعداه إلى المحيط الخارجي كالرعي وجني المحاصيل وجلب المياه من المنابع والعيون،كما أن للرجال كثير من الأعمال والنشاطات التي يتشاركون فيها والنساء كالحرف والصناعات التي تمارس داخل المنازل خاصة كالنسيج مثلا هذا بالإضافة إلى النشاطات الفلاحية الأخرى.

ولدينا عنصرا آخرا هاما يساهم في هذا الترابط والتلاحم بين أفراد المجتمع القروي الواحي و الريفي وهو نظام توارثته الأجيال عن بعضها البعض والمتمثل في تقسيم المياه وتوزيعها بأقساط معينة تعارف عليها سكان القرى منذ القدم ،وذلك يبدوا ظاهرا من خلال تفرعات السواقي والمجاري الخاصة بهذه الأقساط داخل الأراضي والبساتين ،و حتى وإن اختلفت طرق التوزيع لهذه المياه فإن الهدف واحد ومشترك بين القرى الواحية والريفية، أي تطبيق مبدأ التساوي والعدل الذي يعتبر مبدأ أساسيا يساهم في الاستقرار والحرص على المصلحة العامة في تسيير هذه المصادر الطبيعية وتوظيفها في شتى مجالات الحياة العامة،وإن كانت تحدث في بعض الأحيان بعض المنازعات حول المياه لكن سرعان ما يتم فضها لأن هذه الأقساط من المياه مضبوطة بعقود وأوراق رسمية تظهر من خلالها وحسب المواريث كمية الماء الخاصة بكل قبيلة أو عائلة،والتي تحدد حصتها من المياه خلال الأربع وعشرين ساعة وهو عدد ساعات اليوم والليلة ،ولدينا نموذج لهذا التوزيع للمياه في قرى القطار وهو كالآتي:

- من منتصف النهار إلى العصر.
- من العصر إلى التماسي(الغروب).
- من التماسي إلى الحباش(قرابة الساعة الحادية عشر ليلا).
- من الحباش إلى الفجر.
- من الفجر إلى ساعة عين(12 قدما أي حوالي الساعة الثامنة صباحا).
- من ساعة عين إلى منتصف النهار[14].

ويتبع توزيع المياه وتقسيطها بالقرى الريفية ببني سنوس النظام الآتي:

- من الفجر إلى الوقت المسمى سبعة أقدام، وهي فترة صباحية يبلغ خلاله ظل الرجل سبعة أقدام طولا.

- من سبعة أقدام إلى صلاة الظهر.

- من الظهر إلى صلاة العصر .

- من العصر إلى صلاة المغرب (غروب الشمس).

- من المغرب إلى صلاة العشاء.

- من العشاء إلى وقت النوم، على الساعة 22:30 ،أي مدة ساعة ونصف (نفس المدة التي يستغرقها الدور السابق).

- من وقت النوم إلى صلاة الفجر [15].

إن احترام الأقليات وتثمين دور المرأة في المجتمع القروي والقيام بتقسيط المياه بالمساواة بالنظم السابقة الذكر ساهم في تعزيز الروابط الاجتماعية والعلاقات بين السكان لتصبح مجتمعات تلك القرى كالجسد الواحد،وذلك يشكل بحق مظهرا من المظاهر العمرانية التي نجد لها الكثير من الأمثلة داخل القرى التي قامت في الواحات والأرياف في مختلف أنحاء العالم العربي خاصة ،والتي لا تزال مستعملة إلى يومنا هذا ،بالرغم من وجود الحلول التي بإمكانها اختصار الوقت والجهد الذي يبذله سكان القرى في مختلف نشاطاتهم اليومية .

-3 المظهر الاقتصادي:

يشكل المظهر الاقتصادي لدى سكان القرى الواحية والريفية عصب الحياة الذي تنحصر فيه كافة نشاطاتهم والتي يمكن تلخيصها في ثلاثة جوانب هامة والتي شكلت الحلقة الرئيسية لهذا الاجتماع البشري وهي كالآتي:

أ - الجانب الفلاحي
ب - الجانب الصناعي
ج – الجانب التجاري

أ- الجانب الفلاحي:

تمكن سكان القرى الواحية والريفية من خلال توفر المياه وتعدد مصادرها وإيجاد الطرق

الكفيلة بحسن التصرف فيها في هذا المجال الطبيعي الصعب ،وعلى مر العصور ممارسة أنشطة فلاحية مختلفة ،كانت تزيد وتنقص حسب الأوضاع المادية لأفراد القرية،فالفلاحة والزراعة تشكل حيزا هاما من حياة هؤلاء السكان ،وهي شرط أساسي من شروط العمران الريفي وحدوثه ،حيث تمثل المساحات المغروسة المساحة المكملة للفضاء المبني للقرية ،فمهما تعددت وظائفها فهي المصدر الأساسي لتوفير الحاجيات الأساسية لها ولسكانها ،لذلك فإن العناية بها واعتماد تقنيات فلاحية محددة هي مظهر آخر من مظاهر الخلق والابتداع لدى السكان ،تثبت قدرتهم على التصرف حسب الظروف المحيطة وتسمح لهم خاصة بالتأقلم مع خصائص الوسط الطبيعي وتكييفها خدمة لمصالحهم الأساسية من خلال تكثيف الاستغلال الفلاحي،وهذا ما تسعى إليه جهود الفلاح في القرية ، في تسخير كامل قدراته لتيسير العمل والاستفادة مما تدره الأرض من خيرات ونعم بابتكار تقنيات وطرق تقليدية يسهل التعامل بها.

أما بالنسبة لتوزع أنواع الغراسات في تلك القرى فالمحدد لها هو وفرة المياه وقربها أو بعدها عن القطع المزروعة أو المغروسة وكذا نوع المناخ السائد في المنطقة ،حيث تتنوع الغراسات وتتركز بالأجزاء القريبة من الوديان كما يظهر ذلك خاصة في قرى بني سنوس التي نجد الكثير من غراساتها تنتشر حول وادي الخميس ووادي تافنة،خاصة غراسة الزيتون وبعض أشجار الفواكه وكلما ابتعدنا عن المصادر المائية تقل الغراسات التي تحتاج إلى المياه بالدرجة الأولى وتكثر الحقول والزراعات التي تعتمد خاصة على مياه الأمطار والتساقط،ويبدوا من خلال المعاينة الميدانية التي قمنا بها في قرى بني سنوس أن التنوع الكبير في طرق استغلال الأرض وكيفية استثمارها يبرز لنا مدى المجهودات المبذولة لتذليل العقبات الطبيعية من أجل الحصول على إنتاج وفير ومتنوع لتغطية أقصى ما يمكن من الحاجيات الأساسية بالاستفادة من الزياتين والأشجار المثمرة والخضر وغيرها مما يحفظ البقاء والاستقرار بالمنطقة كلها،أما عن الفلاحة الواحية فقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بدورة مياه العيون والمنابع فنوع الفلاحة مرهون بنسبة المياه التي توفرها القسمة التي أشرنا إليها سابقا ،فكلما كان دور الماء قصيرا أمكن التنويع وتكثيف الاستغلال وعندما يكون الدور طويلا يتم الاقتصار على غراسة الزياتين التي تتحمل العطش[16].

وقد ترسخت لدى سكان هذه القرى بصفة عامة ثقافة الغناء الشعبي التي ارتبطت ارتباطا وثيقا ببعض المواسم الفلاحية ،فرغم بساطة كلماتها إلا أنها تبدوا أكثر تعبيرا عما يدور في مخيلة الفلاح البسيط كما أنها تعبر أيضا على مدى تشبثه بالدين من خلال بعض التعابير

والأدعية الدينية التي توظف في مثل هذه الأغاني ،ففي القرى الواحية بقفصة ينشد الفلاحون أثناء القيام بعملية تذكير النخيل هذه الأبيات:

ياربي سلمها من التخديد****

واجعل قوائمها حديد

ياربي سلمها وبارك فيها

واجعل محمد داير بيها

محمد محمد والصلاة على النبي

وارضوا عن العشرة مع مولانا علي[17]

وتظهر الأغاني الشعبية أيضا لدى سكان قرى بني سنوس بريف تلمسان أثناء ممارستهم لمختلف النشاطات الفلاحية ،حين نسمع الكثير من الحكم والأمثال الشعبية التي يكون مضمونها دال على بساطة تفكير الإنسان الريفي إلى درجة أنه يجعل من بعض هذه الأمثال نوع من الأغاني يخاطب بها عصافير الدوري المراكشي ودوري الجدران الذي يظهر مع ظهور أولى سنابل الذرة :

الزاوش الله يهديك

قيني من هذه العرمة

هديك الا عرمة مسكين

جابها بالبوتيكي والدين

والخلاص حتى العرمة

ويبدوا أن مدلول هذه الكلمات التي تغنى باللغة العامية هو مظهر من المظاهر العمرانية التي اشتهرت بها القرى الواحية والريفية على حد سواء ،وإن دل ذلك فإنما يدل على مدى ارتباط الفرد بهذا الوسط الطبيعي الغني بالمصادر الطبيعية التي تشكل الدخل الرئيسي والمصدر الاقتصادي الهام للعائلة القروية،وهو يعبر عن فرحه بهذه النشاطات وممارستها من خلال الغناء والأهازيج التي تصحبها في مختلف المواسم الفلاحية[18].

ب- الجانب الصناعي:

يحتل الجانب الصناعي المرتبة الثانية من حيث الأهمية لدى سكان القرى الواحية والريفية على حد سواء ،حيث تعتبر الصناعات في هذا الوسط وإن كانت تتم بطريقة تقليدية الشغل

الشاغل للحرفيين وأرباب هذه الصنائع،ولعل توفر المادة الأولية في شكل خام في المنطقة بحد ذاتها شكل عاملا هاما من عوامل تطوير الصناعة المحلية التي اتخذت أشكالا مختلفة وأنواعا متعددة لا يزال سكان القرى يهتمون بممارستها إلى غاية يومنا هذا خاصة صناعة النسيج والسعف والحلفاء والخشب وكذا صناعة الفخار كما اشتهرت هذه المناطق أيضا بصناعة الرحى ،ويشترك في هذه الصناعات كلا الجنسين النساء والرجال لأن العمل الحرفي في القرية يتطلب ذلك،غير أن قرية تافسرة بالقرى الريفية انفردت بصناعة الحديد ،وذلك لتوفرها على مادة الحديد وقد تميزت بذلك منذ القدم فقد قام الحسن الوزان بزيارتها وزودنا بهذا الوصف (مدينة صغيرة تقع في سهل على بعد نحو خمسة عشر ميلا من تلمسان ،فيها حدادون كثيرون لأنه توجد بقربها عدة مناجم للحديد والأراضي المجاورة لها جيدة لزراعة القمح ،وأهل تافسرة قليلوا المجاملة إذ لا يشتغلون بغير خدمة الحديد ونقله إلى تلمسان)،ومهما يكن فإن الجانب الصناعي أو الحرفي يعتبر نقطة اشتراك بين القرى الواحية والقرى الريفية على حد سواء ،حتى وإن اختلفت التقنيات والوسائل في التعامل معه حيث يعتبر عاملا هاما ومظهرا عمرانيا تتميز به هذه المناطق عن غيرها والذي تساهم فيه البيئة المحيطة بالسكان إسهاما كبيرا باعتبارها مصدر إلهام للصانع والحرفي في آن واحد [19].

ج- الجانب التجاري:

تظهر أهمية الجانب التجاري في القرى الواحية والريفية من خلال توفرها على الأسواق والمحلات التي يتم من خلالها عرض السلع والبضائع التي يتم إنتاجها في القرية سواء كانت محاصيل زراعية أو صناعات محلية ،وقد شكل الجانب التجاري في حياة السكان حركية اقتصادية ساهمت في احتكاك سكان القرى ببعضهم البعض كما يظهر ذلك جليا من خلال الأسواق الأسبوعية التي كانت تتم فيها مثل هذه المعاملات والصفقات،ففي القرى الواحية مثلا نجد سوق قفصة التي تعتبر من أهم الأسواق في الربوع من حيث دوريتها وحجم البضائع المتداولة بها وعدد المترددين عليها فهي سوق يومية تتكون من محلات مختصة ،وقد قدر ضباط الجيش الفرنسي في تقاريرهم حول هذه السوق حجم المبادلات التي تقع بسوق قفصة سنويا بمعدل :

6000 من الأغنام

6000 جزة صوف

800 من الأغطية الصوفية الصغيرة الحجم

1000 من الأغطية ذات الحجم الكبير

300 من البرنس والحولي
150 قفيزا من القمح
1000 قفيزا من الشعير
2000 مطر من الزيت [20].

كما يمثل التبادل التجاري مظهرا آخرا من مظاهر العمران الريفي بمنطقة بني سنوس حيث لم يغفل سكان القرى هذا الجانب خاصة وأن قرية الخميس كانت تتوفر على سوق أسبوعي ساعد في تقوية الرغبة في تلبية الحاجيات المتنوعة والمتزايدة للسكان ،فكانت من خلال هذا السوق الأسبوعي تقام العلاقات التي يتم من خلالها تبادل السلع وعرض الصناعات المحلية من نسيج وفخار وأواني خشبية وغيرها من السلع ذات الإنتاج المحلي والتي سبق وأن أشرنا إليها ،وقد شكلت الرحبة الواقعة بالجهة المقابلة للمسجد العتيق بقرية الخميس المساحة الأوفر لهذا السوق ،وحسب الروايات الشفهية التي يرددها سكان القرية ،فإن هذا السوق المحدود المساحة كان بمثابة ملتقى أسبوعيا يلتقي فيه سكان قرى بني سنوس والقرى المجاورة للإتجار والبيع والشراء، وتجاذب أطراف الحديث التي غالبا ما كانت تتم في المقاهي الشعبية التي تحيط بالرحبة أو بالسوق، والتي لم يبق منها اليوم غير مقهى واحد يعمل بالطريقة التقليدية حيث يتم فيه إعداد القهوة والشاي على النار الموقدة بالخشب ،كما تنتشر بعض الدكاكين التي لم يبق منها اليوم غير الآثار، والتي كانت تمارس فيها صناعة الأمتعة والعتاد الخاص بالدواب حسب ما يرويه سكان المنطقة حيث اشتهرت هذه الصناعة أو الحرفة عند الجالية اليهودية التي كانت تسكن المنطقة منذ القدم ،ولا شك في أن هذا النشاط التجاري الذي عهدته المنطقة ودأب السكان على ممارسته استفادت منه حتى مدينة تلمسان هي الأخرى ،حيث كانت تجبى إليها الكثير من الموارد التي كانت تزخر بها المنطقة،وذلك بحكم أن قرى بني سنوس لم تكن تبعد كثيرا عن مدينة تلمسان،إلا أننا لم نجد ذكرا لهذا النشاط التجاري وكذا المنتوجات التي تميزت بها المنطقة بين ثنايا المصادر والمراجع ،فقد أغفل تماما هذا الجانب الذي وجدنا له شواهد مادية متعددة قد أتينا على ذكر أبرزها[21]، ومما أن منطقة بني سنوس تميزت بصناعة الحلفاء التي تعتبر من بين أهم الاختصاصات التي تميز بها السكان خاصة العنصر النسوي ، وقد تمت المزاوجة في هذه الصناعة بين الصوف والحلفاء في صناعة الحصر السنوسية، حيث كانت تباع وتوزع في الجزائر كلها ،وتستخدم غالبا في تغطية أرضيات قاعات الصلاة بمساجد المدن الوهرانية ، وقد كان سوق الخميس الرئيسي يبيع قبل الحرب ما يعادله 100،000فرنك فرنسي سنويا[22].

خلاصـة:

رغم بساطة المظاهر العمرانية المشتركة بين القرى الواحية والقرى الريفية ، إلا أن المجتمع القروي بأطيافه المختلفة استطاع أن يخلق نشاطا اقتصاديا اعتمد فيه على الوسط الطبيعيى المتميز للمنطقة ،والذي نشأ بفعل الارتباط الوثيق بالمصادر الطبيعية المتميزة،والتي سمحت بتغطية أقصى ما يمكن من حاجيات السكان المحلية وكذا سكان المناطق المجاورة وصولا إلى المدن الكبرى ،وهذا ما أدى إلى تحريك الجانب التجاري للمنطقة وتفعيله،وقد فرضت بساطة التقنيات إلى ممارسة بعض هذه النشاطات في مختلف الأوساط بصفتها نشاطات ثانوية ومكملة للعمل الفلاحي ،ولذلك كانت العديد من الحرف تمارس في الوسط العائلي وفي المنازل وبمشاركة كل أفراد العائلة ،إلا أن بعض تلك الحرف أصبحت فيما بعد عملا مهنيا خاصا، تخصص فيه بعض أفراد المجتمع ممن يمتازون بالإتقان والتفاني في العمل فأصبح يمارس في القرية بصفة دائمة ،حيث اتخذت له الدكاكين والمحلات التي كانت تنتشر في القرية وفي جنباتها ،فأصبح إنتاجهم موجها إلى السوق المحلية التي يرتادها السكان المحليون وكذا سكان القرى المجاورة ،وبذلك أصبح العمل الحرفي عاملا من عوامل تطور العمران الواحي والريفي الذي يهدف في أصله إلى تحضر ورقي الأسرة وأفرادها نساءا ورجالا.

الهوامش

- عبد الرحمان ابن خلدون،كتاب المقدمة،تحقيق:عبد السلام الشدادي ،ط1،بيت الفنون والعلم والآداب ،الدار البيضاء ،2005،ص67.

***- قفصة:مدينة من المدن الهامة في تونس لها تاريخ عريق يرجع حتى العهد الروماني ،وهي تحتل موقعا استراتيجيا هاما بحكم وجودها على مفترق طرق يؤدي إلى كل من القيروان وتونس الجريد وسوف ونحو ميناء صفاقس ونحو قابس وقرى نفزاوة وفريانة وإفريقية وتبسة .للمزيد ينظر:مصطفى التليلي،قفصة والقرى الواحية المجاورة حول الحياة الجماعوية (من بداية القرن 18 إلى 1881)،نشر جمعية صيانة مدينة قفصة ،سنباكت،تونس ،2009،ص37.**

****- هي أسامي القرى الأربعة التي قمنا بدراستها ميدانيا،حيث لم يرد ذكرها وذكر معانيها في المصادر والمراجع ،ما عدى قرية تافسرة التي زارها الحسن الوزان وقام بوصفها وأكد بأنها اشتهرت ببساتينها وخضارها وأن أهلها يشتغلون في صناعة الحديد الذي وجدنا بقاياه إلى يومنا هذا منتشرة في كامل أرجاء القرية ،وتبعه في ذلك مارمول كار بخال الذي أضاف إليها في وصفه بأنها مدينة مسورة أي لها سور،في حين أننا لا نجد ذكرا لباقي القرى ما عدى بعض الاجتهادات من سكان القرى بأن قرية الثلاثا هي تنسب إلى سوق كان يقام يوم الثلاثاء، وأن قرية الخميس أيضا اشتهرت تسميتها نسبة إلى السوق الذي لا زال يقام إلى يومنا هذا فيها،كما أن سكان قرية بني عشير يعتقدون بأن قريتهم هي قرية استقبلت العديد من القبائل في آن واحد وكانت العشرة بينهم طيبة فسميت قريتهم ب بني عشير،وتبقى مثل هذه التخمينات والاجتهادات بعيدة عن الحيقيقة التاريخية ما لم يتم تدعيمها بالمصادر والوثائق التي تشير إلى ذلك ،و**

للمزيد عن قرية تافسرة يرجى الاطلاع على:- الحسن الوزان ،وصف إفريقيا،تر:محمد حجي وآخرون،دار الغرب الإسلامي،ج2،بيروت ،1983،ص24.- مارمول كاربخال،إفريقيا، ترجمة :محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ج2،الرباط، المغرب،1984،ص 323.

***- مدينة تلمسان مدينة عريقة لها تاريخ مجيد ، وهي تقع بالغرب الجزائري وتبعد عن العاصمة الجزائر بحوالي 550كلم،وقد اعتبرها الزيانيون عاصمة لهم ،فهي مهد حضارتهم ومركز حكمهم .انظر في ذلك، محمد رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،الجزائر1985،ص25،- محمد عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، الجزائر، 1984م،ص46،45.

[2] – مصطفى التليلي،مرجع سابق، ص 38،37.

3 – عن تخطيط هذه القرى الواحية أنظر مصطفى التليلي ،مرجع سابق،ص44-64،وعن تخطيط عمران قرى بني سنوس أنظر: رابح فيسة محمد ، العمران الريفي في منطقة بني سنوس(تلمسان) دراسة تاريخية أثرية ، أطروحة دكتوراة في الآثار الإسلامية،معهد الآثار،جامعة الجزائر ،2013،ص36.

-4 يحي أبوا المعاطي محمد عباسي،الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس(238-488هـ) (852-1095هـ)،أطروحة دكتوراه ،قسم التاريخ الإسلامي جامعة القاهرة ،القاهرة،2000،ص845.

-5 مصطفى التليلي،مرجع سابق، ص294.

-6أحمد رشوان حسن عبد الحميد،علم الاجتماع الريفي ،المكتب العربي الحديث،الاسكندرية، 2003،ص78،79.

-7 مصطفى التليلي،مرجع سابق، ص59-66.

-8 مصطفى شاكر، المدن في الاسلام حتى العصر العثماني،ط1،ج1،دار السلاسل الإسلامية،1988ج2، ص305.

-9 رابح فيسة محمد،مرجع سابق،ص98.

-10 مصطفى التليلي،مرجع سابق، ص225-228.

-11 رابح فيسة محمد،مرجع سابق،ص44.

-12 عن أهم النشاطات الممارسة من طرف النساء في القرى الواحية أنظر:مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص285.

-13 عن دور المرأة في القرى الريفية ببني سنوس أنظر :رابح فيسة محمد ،مرجع سابق،ص156.

-14 مصطفى التليلي،مرجع سابق، ص 99.

-15 رابح فيسة محمد،مرجع سابق،ص136.

-16 مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص110.

****- التخديد هو فشل عملية اللقاح أنظر: مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص120.

-17 مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص120.

-18 رابح فيسة محمد،مرجع سابق،ص146،145.

-19 للمزيد من التفاصيل عن العمل الحرفي في القرى الواحية بقفصة وقرى بني سنوس يرجى الاطلاع على :- مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص137-151.- رابح فيسة محمد،مرجع سابق،155-160.

-20 مصطفى التليلي،مرجع سابق،ص152،153 .

-21 ألفرد بل،ـمرجع سابق، ص48.

-22 رابح فيسة محمد،مرجع سابق،ص161،162.